



سمة التواطؤ بين المفهوم والواقع.. قضية "بيان مزعل" مثلاً (مقال رأي)

يأخذ التواطؤ أشكالاً عديدة، مباشرة وغير مباشرة، عن معنى وقصد تارة، وعن ضرورة واضطرار تارة أخرى، ويكون التواطؤ مرحلة وسطى في المعادلة بين أقصى الرفض السلبي من جهة وأشد الخضوع الإيجابي من جهة أخرى، أما عن التواطؤ المقصود في حديثنا، فهو ذاك المضطرب، غير الواضح، الضبابي السبب، الضائع الهدف، والخائف من يد الثورة الطولى التي تراقب وتترقب.

ربما، يهدف بعض الكلام للقتل وغيره للتنديد، أما هدف مقالنا هذا فهو إحداث صدمة بالمستهدفين، فالتواطؤ قد يكون جبرياً يفرضه الطرف الأقوى على الطرف الأضعف، ويأخذ طابع الآنية والوقتيّة، إلّا أنه إذا طال دون أسباب معلنة ومقنعة، فيتحوّل لدليل مباشر على رضى الطرف الأضعف وربما انخراطه في مشروع الأقوى، الذي يصبح شريكاً في الحاضر بعدما كان العدو الأول في الماضي.

كما يفترض التواطؤ اعتراف الطرف الضعيف بينه وبين نفسه بالهزيمة الداخلية لكيانه ومشروعه، فيلجئ للتحالف مع الآخر الذي يسنده ويقوّيه، والتحالفات قد تكون مشروعة في بعض الأحيان والظروف، إلّا أن التحالف الغير شرعي والمرفوض هو ذاك القائم على جسور من الدماء والأشلاء، يعبر من خلالها الطرفين الأعداء، ليلتقيا على جعبة من المصالح والمنافع المتبادلة، لتتبدّل العلاقة من صفرية عديمة تستهدف إفناء الآخر إلى حيّة فاعلة تُبنى على المكاسب وما يمكن إنجاز له لخدمة الطرفين.

ويحتاج التواطؤ أيضاً إلى الكذب، المبرمج، المسوّق إعلامياً عبر أقلام مأجورة، لتدافع عنه بحجج سخيفة لا ترقى لإقناع طفل، وحين يتعرّى التواطؤ ويطفو على السطح ويتداول إعلامياً، يبدأ أصحابه بمحاولة ترقيع التشويه الحاصل، والدفاع عن مشاريعهم وأفعالهم عبر التصريحات والإعلانات من جهة، أو عبر تكميم الأفواه من جهة ثانية، ذلك أن كواتم الصوت تُبدع في هذه الحالة، على حساب الحقيقة والثورة طبعاً.

وإن طالت المقدّمة النظرية على حساب الفكرة الواقعية، فهذا من شرط التوضيح والتلميح، فالتواطؤ المشهود هذه الأيام على مستوى محليّ لا بدّ أن يطرح إلى الرأي العام والناس ليعرفوا ويتعرّفوا، وليكشف حجم العلاقة خلف الكواليس بين أطراف فاعلة في جنوب دمشق ونظام الأسد، فقد انفضحت أخيراً قصة "بيان مزعل أبو عمر الجولاني" العميل لفرع فلسطين خلال الأيام الماضية ولكن دون أن تعرف ملابسات القضية كاملة، على الرغم من وصول سفنها إلى ميناء "المحكمة العامة لجنوب دمشق" لمعاينتها ومعالجة الخلل الحاصل، إن لم يكن في حقيقة الأمر عطباً كبيراً في منظومة أمنية مترهلة في المنطقة.

"بيان مزعل أبو عمر الجولاني" شخصية مثيرة من شخصيات جنوب دمشق، من أبناء الجولان القاطنين سابقاً في حي الحجر الأسود، عمل إعلامياً في كتيبة جند الله التابعة للجيش الحر أوائل تشكيله وبعد استشهاد قائد الكتيبة تسلّم زمام أمورها، ليتطور حال الكتيبة يوماً بعد يوم وصولاً إلى تأسيس لواء الحجر الأسود ومن ثم الإعلان عن تشكيل الفرقة الرابعة – حرس دمشق، والذي كان القائد الفعلي لها، إلى حين تعرّض الفرقة لحملة أمنية شنتها الرابطة الإسلامية في صيف عام 2013 بهدف القضاء على المفسدين فيها، ليتحوّل دور الفرقة تبعاً وينتهي مع الوقت.

تلى الحملة الأمنية على الفرقة الرابعة – حرس دمشق بأيام خروج أبو عمر بيان من جنوب دمشق المحاصر بشكل شبه كليّ باتجاه درعا، وفقدان التواصل معه حسبما أشيع، وانتشار روايات متضاربة حول مصيره، فرواية تشير إلى اعتقاله في فرع فلسطين مع بعض عناصره، ورواية هي الأرجح تشير إلى أن خروجه جاء في سياق دوره الأمني الموكل إليه من فرع فلسطين باعتباره أحد عملاء البارزين من قلب الجيش الحر في العاصمة دمشق ومحيطها، وما إطلالة أبو عمر خلال الأيام الماضية من تركبها إلا دليل

على خيارين أحلاهما مرّ، فإما أن الجولاني عميلٌ بالأساس ووجوده في تركيا حالياً يأتي ضمن مخطّط جديد، أو أنه بعد ما أشيع عن اعتقاله في فرع فلسطين فقد تمّ تجنيده، والتمن حريّته المشروطة بتقديم خدماتٍ للنظام، فهل من المعقول أن يطلق النظام المجرم سراح قائدٍ ثوريٍّ بمقام بيان مزعّل من المعتقل سليماً معافى وبدون مقابل؟!!

الأهم من ذلك أنه وخلال الأشهر الماضية دخل "أبو عمر بيان" إلى جنوب دمشق المحرر عدّة مرات قادماً من العاصمة دمشق عبر حاجز ببيلا – سيدي مقداد، بلباسٍ عسكريٍّ كامل من بندقيةٍ روسيّة وجعبةٍ وذخائر، وتشير مصادرنا أن الهدف من دخوله هو السعي لتأسيس مشروعٍ ثوريٍّ تحت عباءة النظام، مشروع ذو صبغةٍ مناطقيّة، يحمل في طيّاته بعض المنطق كتوابل لتدمير السمّ المطهيّ على نارٍ هادئة، إذ أنه من المؤكّد أن "أبو عمر بيان" لم يدخل بغرض السياحة أو التسوق، ومن أدخله وأخرجه، لم يقدّم هذه الخدمة لأهدافٍ إنسانيّة، وبالطبع ليس "شوفير تكسي"!.

لكن من المنطقي وفي إطار ما يسمى الحرب على الإرهاب أن يكون دخول أبو عمر الجولاني في سياق الحديث عن ضرورة دمج الجيشين الحر والأسدي، في إطار عسكريٍّ موحد، خلال المرحلة الانتقاليّة، بهدف توجيه بوصلة العمل العسكريّ ضد تنظيم الدولة وجبهة فتح الشام "النصرة سابقاً"، فكل المؤشرات توحى إلى أن مشروع بيان مزعّل المطبوع في فرع فلسطين، والذي كان بصدد تنفيذه في جنوب دمشق، هو مشروع شاملٌ يشكّل نموذجاً جيّداً، يمكن الانطلاق فيه نحو مناطق أخرى، تتبّاه وتكرّسه، فكم من "بيان مزعّل" في المناطق المحررة، شكلاً مع الثورة وقلباً مع النظام؟!.

قضية دخول أبو عمر بيان إلى جنوب دمشق والتي تحوّلت إلى المحكمة العامة لجنوب دمشق منذ فترة قصيرة قد لا تُكشف مُلابساتها بشكل كامل، وقد توضع العصي في العجلات إن لم نقل إنها توضع الآن، فالقضية ليست بشخص المدعو، وإنّما بمن سهّل وساهم بدخوله وخروجه، وبمن اقتنع وكان في طريقه لتنفيذ مشروعه، وبمن يحاول التهرّب الآن من مسؤوليّة المحاسبة والمسائلة.

يضاف إلى ما سبق غضّ الطرف من قبل أطراف فاعلة في الساحة عمّا حصل ويحصل، لقناعتها بضرورة عدم الإخلال بالتوازن الحاصل في المنطقة، هذا التوازن الذي تحاول تلك الأطراف حمايته ولو كان على حساب الثورة، ولو كان على حساب الحقيقة، فأى تغيير يحصل ولو كان مصلحة ثورية شرعية فإنّه "فتنة" حسب زعمهم، والفتنة أشد من القتل، وجنوب دمشق لا يحتمل هكذا "زعزعة" في حالته الكمونية المستقرّة في الضباب، بين الثورة والنظام.

إذاً، تحليل واقعة أبو عمر بيان فكرة التواطؤ إلى ترجمةٍ عملية، ويحيلنا مشروعه إلى النموذج الأشهر المشابه في الشمال السوري والمسمى "قوات سوريا الديمقراطية"، وإلى مثال جسّ النبض المتواتر اعلامياً بين الحين والآخر، مجلس عسكري بين الحر والأسدي بقيادة "مناف طلاس"، فهل نشهد في الأشهر القادمة إعادة شرعنة المدعو بيان مزعّل ثورياً وإعلامياً خاصّة بعد الإعلان عن استضافته على قناة الجسر المعارضة خلال الأيام القادمة، لنراه يوماً ما في المستقبل على ظهر دبابةٍ أميركية أو روسية أو أسدية رافعاً علم الوطن الجديد، وهو يدخل جنوب العاصمة دمشق مجدداً، وهل نشهد استقبلاً حافلاً على عكس استقباله السريّ الضيق خلال الأشهر الماضية، أم أن الثوار الصادقين والمجاهدين المخلصين والأحرار الوطنيين لديهم قولٌ آخر يرضي الله والثورة والشعب!.

**#بيع\_ثورة**